

## الاهداء

إلى ولدى مؤنس :

أنت يا بنى موضع الحب من قلبي ، ومعقد الرجاء فى نفسى ، محبا الله  
بنور أنسك ظلمة وحشتى ، وغمر بفيض حبك كل مهجتى . وفى  
هنا الكتاب نفحات صادقة من الحب ، ولعات مشرقة من الأانس ،  
أهديا إليك ، آية على حبي لك ، وأنسى بك ، وأملى فيك ،

والدك

محمد مصطفى حلمى

obeikandi.com

## تقدمة

بقلم

### الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق

إن بحوث التصوف ، وما تحتاج إليه من عناء وجهد ، ومن إلمام واسع بمصطلحات القوم التي يديرونها بينهم . ومن إدراك دقيق يوازن بين أذواقهم الغيبية وبين آراء غيرهم من أهل النظر الخالص أو النظر المشترك . يعد في الحقيقة أمراً خطيراً يفتقر إلى اطراح الطوى واستعمال النصفه والعدل في الحكم ، ويتطلب أيضاً أن ينزل الباحث حياً عن بعض نظراته المادية . ليتيسر له أن يعيش آتية في هذا الجوارحى .

ولقد لقيت المتصوفة من قديم الدهر عنتاً شديداً ، وذلك من جراء غموض ألفاظهم وإشاراتهم ، وما توهمه ظواهرها من الضلال والزيف . ولقد اضطر ابن عربى لكى يضمن لنفسه بعض السلامة والعافية أن يضع شرحاً لديوانه « ترجمان الأشواق » يبين فيه مقاصد كلامه ومرامييه . ويظهر ما خفى من معانيه ، ويعين ما التبس منها . لئلا يتأولها المتأولون على غير الوجه الذى أراد .

لذلك كان اغتباطى عظيماً بإقدام الأستاذ الجليل الدكتور محمد مصطفى حلمى ، على كتابته فى هذا الموضوع الشائك . الذى يبحث فى « ابن الفارض » الصوفى المصرى . ويدرس « ابن الفارض » الشاعر المصرى الذى فتن بجمال مصر واستهوته مغانيها وربوعها إذ يقول :

وطنى مصر وفيها وطرى ولتسمى مشتهاها مشتهاها

وكان لجبل المقطم ووادى المستضعفين به من الأثر البالغ فى نفسه ما منحه بحق لقب « سلطان العاشقين » .

إن لابن الفارض مكانته الظاهرة اللامعة بين المتصوفة ، بل هو يعد فى نظرنا الصوفى المصرى الأول بلا منازع ، كما يعد رأساً لشعراء الصوفية من العرب

وقد ظفر ديوانه بما لم يظفر به ديوان آخر من تواتر الشراح والمفسرين ، وعنيت أجناس شتى من الأوربيين وغيرهم بنقل شعره إلى لغاتهم ، وما زال شعره إلى اليوم يتغناه الصوفيون ويتناشدونه في حلقاتهم .

إن ابن الفارض لم يسلم — كما لم يسلم غيره من المتصوفة — من طعن الطاعن عليه ، وقد انبرى له الإمام ابن تينية وأمعن في نقده وتبريحه ، كما تصدى له كثير من الفقهاء يتهمونهم بالكفر والزندقة ؛ ولكن واضع هذا الكتاب قد وفق في كثير من الأمر إلى أن يكشف وجه الحق عن هذه الطعون التي وجهت إلى ابن الفارض ، وأن يخلق منها تمجيذاً لهذا الصوفي ورفعاً لشأنه .

إن إعجابي بالأستاذ المؤلف وتقديرى له يرجع العهد به إلى سنوات مضين منذ كان يعد هذه الرسالة الجامعية التي كان لي حظ الاشتراك في نظرها ومناقشتها ، وكان الأستاذ موفقاً جد التوفيق في تحليل موارد صوفية ابن الفارض التي طبعتها بهذا الطابع الخاص ، كما ظهرت براعته واضحة في بيان تأثير ابن عربي في تلاميذه الذين تولوا شرح ديوان ابن الفارض ، فذهبوا في تأويل ألفاظه الصوفية إلى مذهب شيخهم ابن عربي ، وخاطبوا في ذلك بين المذهبين وهم لا يشعرون .

وفي هذا الكتاب ، الذي يعد الأول من نوعه في العربية ، كثير من التحقيقات التي تقتضى صاحبها من الصبر والجلد قدراً لا يستهان به ، ومن أبرعها ما صنع في تحقيق مولد ابن الفارض الذي اضطربت فيه الروايات اضطراباً ؛ ومنها تحقيقه رواية المقرئ في « نفع الطيب » ، التي تنص أن ابن عربي طلب إلى ابن الفارض أن يضع شرحاً لتأنيته الكبرى ، فأجابه ابن الفارض بتوليه : « كتابك الفخرحات الملكية » . وقد بين الأستاذ ما في تلك الرواية من استحالة مادية بطريقة تحمّل على الإعجاب .

ونحن إذ ننهي المؤلف بما وفق إليه في هذا الكتاب ، نرجو أن يديم الله توفيقه ، وأن يكون قدوة للشباب الجاهلي في البحث عن أعلام الثقافة المصرية العربية .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

التصوف ناحية طريفة ممتعة من نواحي الحياة الإسلامية ؛ ولكنه على ما فيه من طرافة وما يثيره في الشعور والعقل من متاع ، لم يعن به الباحثون من الشرقيين العناية التي تكفي للكشف عن شخصياته ومذاهبه ، وعمما كان لهذه الشخصيات والمذاهب من آثار قيمة في حياة الفكر والروح . وهو لما يمتاز به من هذه الطرافة ، وما يثيره في النفس من هذا المتاع ، قد أقبل عليه كثير من المستشرقين ، فدرسوه دراسة علمية منظمة كان من ثمراتها كثير من البحوث الخصبه القيمة، على نحو ما فعل الأساتذة : ماسينيون في فرنسا ؛ ونيكلسون في إنجلترا ، و نلينو ودي ماتيو في إيطاليا ، وكثير غيرهم في بلاد أوروبا وأمريكا المختلفة ؛ فأنت إذا أردت أن تعرف شيئاً عن نشأة التصوف الإسلامي وتطوره ، والعوامل التي أثرت فيه ، وأعانت على تغذيته وتنميته ، أو عن حياة رجاله العامة والخاصة ، وما كان لهم من آثار في توجيه الحياة الدينية والروحية والعقلية والاجتماعية ، فلن توفق من ذلك إلى كثير مما كتب في لغتنا العربية ، واصطنع فيه كاتبه المنهج العلمي الصحيح ؛ ولعل كل ما تستطيع أن تبلغه هو هذه الكتب التي تحدثك عن طبقات الصوفية حديثاً هو أدنى ما يكون إلى حديث الأساطير الخيالية منه إلى حديث الحقائق الواقعية ، وهذه الأسفار والدواوين التي خلفها أصحابها من الصوفية أو المتصوفة ، وهذه الشروح التي وضعها الشراح على هذه الأسفار والدواوين ، وذهبوا فيها مذاهب شتى ، وسلكوا من مسالك التفسير والتأويل ما كان يزيد أحياناً الأمر تعقيداً ، والمعنى غموضاً وخفاءً ، وما كان أحرانا ، والتصوف جزء من تراثنا الإسلامي ، أن نكون أبر به ، وأكثر إقبالا من غيرنا عليه .

على أنني لا أرى من وراء هذا إلى إنكار ما بذله بعض الباحثين عندنا من جهود موفقة في الكشف عن بعض نواحي الحياة الصوفية الإسلامية ، ولا إلى الغرض مما لبحوثهم من قيمة علمية : فقد عكف الصديق الفاضل والزميل المحترم الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي على دراسة الصوفى المسلم الكبير محيى الدين بن عربى ، فبسط فلسفته الصوفية ، وحللها إلى عناصرها تحليلاً علمياً قيماً . وذلك فى بحثه المكتوب بالإنجليزية وعنوانه « فلسفة محيى الدين بن عربى الصوفية » فضلاً عما له من بحوث أخرى نشرت بالعربية فى كل من « مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة » و « مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية » ، وكذلك عنى الأستاذ الدكتور زكى مبارك بالإبانة عن أثر التصوف فى الأدب والأخلاق . ولكن عناية هذين الباحثين ببعض نواحي التصوف الإسلامى وشخصياته ، ليست شيئاً بالقياس إلى ما ظفرت به الحياة العقلية أو الأدبية أو السياسية فى الإسلام من جهد الباحثين ، ووفرة مؤلفاتهم فيها .

ولعل السبب الذى يرجع إليه إهمال الباحثين منا لدراسة التصوف الإسلامى ، هو اعتقاد الكثيرين أن أذواق الصوفية وأحوالهم لون من ألوان الهديان ، وأن مذاهبهم وأقوالهم ضرب من الكلام الذى لا معنى له ولا غناء فيه . ولو قد التزم الذين يرون هذا الرأى حدود القصد والاعتدال فى أحكامهم ، وأنعموا النظر فيما أثر عن الصوفية من أذواق وأحوال . وما خلفوه من آثار وأقوال . ودرسوا هذا كله على ضوء المنهج العلمى الصحيح ، لغيروا رأيهم فى التصوف والصوفية ، ولوجدوا أن المواجيد والأذواق ، والرموز والإشارات التى حفلت بها الآثار الصوفية منظومة ومنتشرة . إنما هى تعبيرات عن حياة روحية راقية . وحالات نفسية رائعة . ومذاهب منطوية على كثير من المبادئ والمعانى ليست أقل قيمة من كثير من المذاهب الفلسفية الخالصة المؤسسة على النظر العقلى والاستدلال المنطقى ، ولتبيينوا أن للعاطفة منطقاً ، كما أن للعقل منطقاً ، وأن منطق العاطفة قد ينتهى بالخاضع له إلى نتائج لها طرافتها وجدتها اللتان لا تقلان عن طرافة النتائج التى ينتهى إليها منطق العقل وجدتها .

وإذا كانت تلك هي الحال التي انتهت إليها دراسة التصوف الإسلامي عندنا ، وكان لابد لنا من أن نعنى بهذه الدراسة عنايتنا بغيرها من الدراسات العلمية والفلسفية والأدبية ، فقد اتخذت من عمر بن الفارض - وهو واحد من هؤلاء الصوفية الذين أذعنوا لسلطان العاطفة - موضوعاً لهذا البحث الذي حاولت فيه أن أكشف عن سيرة الرجل وحياته العامة والخاصة ، وما يتصل بهذه من أحوال وبتلك من أحداث ، وعن حقيقة حبه الذي قضى حياته هاتفاً به مرتلاً لأنشودته . وعمّا عسى أن يكون في هذا الحب من المعاني الروحية والمثل الأخلاقية والمنازع الفلسفية ، لا سيما أن حب هذا الشاعر الصوفي مسألة من أدق المسائل وأشدها غموضاً وتعقيداً . اختلف الناس حولها في زمان الشاعر نفسه ، واختلفوا فيها بعد زمانه ، وما يزالون مختلفين فيها حتى الآن ، يقرأ بعضهم ديوانه على أن الشاعر يتغنى فيه حباً إنسانياً يدور حول معشوقة آدمية ، ويقرؤه بعضهم الآخر على أن ناظمه إنما يهتف فيه بالحب الإلهي ويرى من وراء رموزه وإشارته وكتاباتة إلى المحبوبة الحقيقية أو الذات العلية . ومن هنا جاء بجنى في ثلاثة أقسام :

١ - تناولت في القسم الأول ترجمة ابن الفارض وأطوار حياته . وروح العصر الذي عاش فيه ، ومكانه في بيئته ومبلغ تأثيره بعصره . وحللت فيه حياته الصوفية ، وما اختلف عليها من الأحوال النفسية والأذواق الروحية . وما أخذ به نفسه من رياضات ومجاهدات كانت سبيله إلى تصفية نفسه وتنقية قلبه على الوجه الذي يمكنه من التحقق بالوصول إلى محبوبه الأسسى وشعوره بالفناء فيه والاتحاد به . وبينت في هذا القسم أيضاً آثاره التي يتألف منها ديوانه الضئيل الجليل معاً ، وما أثاره هذا الديوان من حركات الشرح والتأويل في البيئات الصوفية الإسلامية ، ومن حركات الترجمة والنقل والتعليق في البيئات العلمية الأوروبية ، وما انتهى إليه أمر هذا الديوان من حكم على صاحبه بالإلحاد والخروج على تعاليم الكعبة والسنّة تارة، ومن دفاع عنه وتبرئة له مما نسب إليه من حلول واتحاد وغيرهما من المذاهب التي تنافي روح الإسلام وتخالف تعاليمه تارة أخرى .

٢- وعرضت في القسم الثاني لحب ابن الفارض وطبيعته ، والكشف عما إذا كان هذا الحب كله حباً إلهياً ، أم حباً إنسانياً ، أم هو مزاج من الحيين . وهنا انتهت إلى أنه لا يبعد أن يكون الشاعر الصوفي قد بدأ حياته العاطفية إنساناً كغيره من الناس ، يجب مثلهم الجمال الإنساني ، ثم أصابه ما يصيب العشاق في بعض الأحيان من إخفاق وخيبة أمل ، فإذا هو يتسامى بحبه عن الجمال الإنساني المعين إلى الجمال الإلهي المطلق حيث وجد فيه عزاء قلبه وراحة روحه وسعادته التي لا تملؤها سعادة . ثم بينت بعد هذه الأطوار النفسية والصفوية التي تعاقبت على نفس الشاعر في حبه الإلهي ، وكيف كان في أول عهده بالحياة الروحية ما يكونه عادة كل سالك في بداية الطريق من تعلق بنفسه ، وخضوع لسلطان حسه ، واندفاع مع إشباع الرغبات والحفظ ؛ ثم كيف أخذ نفسه بالمجاهدة والرياضة حتى خلص شيئاً فشيئاً من سلطان النفس ونير المادة ، وحتى زهد في كل شيء إلا في شيء واحد هو المحبوبة الحقيقية أو الذات العلية ، التي انتهى من إقباله عليها وإعراضه عما سواها إلى شعوره بالفناء فيها وشهوته الوحدة الذاتية التي تنتفي معها التفرقة بين المحب والمحبوبة .

٣- وعكفت في القسم الثالث على دراسة حب شاعرنا من الناحية الفلسفية ، فحاولت أن أحلله إلى عناصره الصوفية التي تنطوي على بعض المعاني الميتافيزيقية والأخلاقية وما إلى ذلك مما انتهت فيه إلى تقرير أن الأنواق والمواجيد الروحية ، والرياضات والمجاهدات الصوفية ، على الرغم مما تتصف به من صفات الذاتية أو الشخصية ، يمكن أن تشتمل في قرارها على بعض النزعات الفلسفية والمثل الأخلاقية ؛ فقد أبنت في هذا القسم عن علاقة الحب والمعرفة عند ابن الفارض ، واجتهدت في أن أظهر كيف أن لهذا الشاعر نظرية ، أو بعبارة أدق نظرة في المعرفة ؛ كما عرضت الصور المختلفة المذهب في الوحدة : وحدة المحب والمحبوبة ، وحدة الله والعالم ، وهما هاتان الوجدتان اللتان أطلقت عليهما اسم « وحدة الشهود » تمييزاً لهما عما يعرف عند الفلاسفة وبعض الصوفية باسم « وحدة الوجود » ( وذلك لأن ابن الفارض لم يكن يدرك هذه الوحدة إلا في حال الشهود

فقط) ؛ ووحدة الخلق كما تمثلت منذ الأزل في الحقيقة الحمديدية التي يسميها ابن الفارض « بالقطب » وبغير القطب من الأسماء التي سنعرض لها في موضعها من هذا البحث ، ووحدة الأديان التي تتضمن أرقى مبادئ الحب والتعاطف والإخاء والمساواة . وأخذت نفسى في هذا كله بإظهار ما عسى أن يكون من ابن الفارض موافقاً لتعاليم الكتاب والسنة أو مخالفاً لها ، وماذا كان في كل ما صوره الشاعر في ديوانه عامة ، وفي قصيدتيه الخافلتين « النائية الكبرى » و « الحميرية » خاصة ، من تأثير ببعض العناصر الأجنبية ، ومن سبق إلى تقرير بعض النظرات الفلسفية التي اهتدى إليها من جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين الذين اصطنعوا العقل بقدر ما اصطنع هو الذوق .

وقد عقبنا على هذه الأقسام الثلاثة بخاتمة أجملت فيها نتائج البحث في حياة ابن الفارض وأذواقه وآثاره ومذهبه في الحب ، كما عرضت للمصادر التي يمكن أن يكون قد استقى منها بعض عناصر مذهب ، ولما عسى أن يكون لسيرة ومذهب كسيرة ابن الفارض ومذهبه من قيمة وأثر في الحياة من الناحيتين الروحية والعلمية .

تلك الإمامة موجزة بأهم العناصر التي تتألف منها أقسام هذا البحث الذي تقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ونوقشت فيه بين يدي الجمهور أمام لجنة الحكم المؤلفة من حضرات الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، والأستاذ أحمد أمين ، والدكتور طه حسين ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور بول كراوس ، في يوم السبت ٢ مارس سنة ١٩٤٠ ، وحصلت به على درجة الدكتوراه في الآداب (قسم الفلسفة) مع مرتبة الشرف . ولعل بهذا أكون قد قدمت بجزء من الواجب علينا نحو هذه الناحية المغدورة من نواحي حياتنا المصرية الإسلامية وهي الناحية الروحية ، لا سيما أن ابن الفارض بحكم صوفيته من ناحية ، وبحكم مولده ونشأته وإقامته ووفاته في مصر من ناحية أخرى ، يعد بحق ممثلاً للتصوف الإسلامى المصرى في طور من أطواره : فالكشف عن حياته ، وعن العوامل التي أعانت على تكوين شخصيته الصوفية ، وتأليف

مذهبه في الحب الإلهي ، إنما هو في الحقيقة كشف عن ناحية من نواحي حياتنا المصرية في أحد عصورها ، وعن الطابع الذي طبعت به هذه الحياة في ذلك العصر . وإذا كنت أتمنى شيئاً فهو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي تنضافر فيه جهود الشباب الجامعيين عندنا على هذه الناحية القيمة المغفورة معاً من نواحي تراثنا الإسلامي . فيوسعونها درساً وبحثاً على وجوه تكشف عما تقوم عليه ، وترى إليه من معاني الحق والخير والجمال .

ولا يسعني بهذا كله إلا أن أسجل هنا فخوراً ما غدرني به أستاذي الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق من عطف جميل . وتشجيع نبيل . وإرشاد سديد ، مذ وقع اختياري على موضوع هذا البحث . وطوال السنوات التي اشتغلت به فيها حتى أتممت تحت إشرافه . فكان ثمرة من ثمرات علمه وفضله . ونفحة من نفحات قلبه وعقله . ولا يسعني أيضاً إلا أن أسجل معترفاً ما أفاضه على أستاذي الجليل الدكتور طه حسين من عناية بي ، ورعاية لي ، وحذب على . مما كان من غير شك عوناً صادقاً على الاستمرار في هذا البحث وإنجازته وتقديمه للمناقشة . هذا إلى ما تركه في نفسي أستاذي الجليل الدكتور منصور فهمي من أثر جميل ، وما قدمه من تشجيع محمود عندما كنت في مسهل عهدي بهذا البحث .

وإن أنس لا أنسى ما كان للمغفور له أحمد زكي ( باشا ) على من فضل الإرشاد إلى كثير من المراجع الخطية والفوتوغرافية التي اشتملت عليها خزانة كتبه الخاصة ؛ فإلى روحه الكريم أبعث بأصدق التحيات . وعلى جدته الطاهر أستمطر أطيب الرحمات . وكذلك أذكر عون الأستاذين لويس ماسينيون ، وكارلو نلتيو . فقد أرشدني كل منهما إلى كثير من مراجع البحث التي كان لها أثر كبير في تجلية بعض الغامض . وتحقيق بعض المسائل . فإليهما أصدق شكرى . ولا يفوتني أن أقدم أخص عبارات الشكر والثناء إلى الدكتور أبي العلا عفيفي على ما كان له من أثر محمود في تحقيق كثير من المسائل الدقيقة التي تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع هذا البحث . وما أبداه من ملاحظات سديدة على ما أطلعت عليه من فصوله . ومن واجبي بعد هذا كله أن أسجل ما كان للصديق

الكريم والأخ العزيز كامل محمد على من فضل في تهيئة الظروف التي أعانت على إخراج هذا الكتاب ونشره ، فله مني أصدق الشكر وأطيب الحمد .

أما الذين أعانوني على قراءة المراجع ، وكتابة البحث ، فكانوا مني العين التي تقرأ ، واليد التي تكتب ، فأظنهم في غير حاجة إلى أن أحمد لهم صنيعهم ، أو أن أشكر لهم ما بذلوا من جهد ، واحتملوا من مشقة وعناء ، والله وحده قادر على أن يجزي الكل عنى خير الجزاء .

محمد مصطفى حلمي

obeikandi.com

إِنَّ الْغَرَامَ هُوَ الْحَيَاةُ فَمَتَّ بِهِ  
قُلُوبَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا قَبْلِي وَمَنْ  
عَنِّي خُدُّوا، وَبِي أَقْتَدُوا وَلِي أَسْمَعُوا  
وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَنَا  
وَأَبَاحَ طَرْفِي نَظْرَةً أَمَلْتُهَا  
فَدَهَشْتُ بَيْنَ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ  
فَأَدِرُّ لِحَاظِكَ فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهِ  
لَوْ أَنَّ كُلَّ الْحُسْنِ يَكْمُلُ صُورَةً  
صَبَابًا فَحَقُّكَ أَنْ تَمُوتَ وَتُعْذِرَا  
بَعْدِي وَمَنْ أَضْحَى لِأَشْجَانِي بَرَى  
وَتَحَدَّثُوا بِصَبَابَتِي بَيْنَ أَلْوَرَى  
سِرًّا أَرْقُ مِنْ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى  
فَغَدَوْتُ مَعْرُوفًا وَكُنْتُ مُنْكَرًا  
وَعَذَا لِسَانُ الْحَالِ عَنِّي مُخْبِرَا  
تَلَقَى جَمِيعَ الْحُسْنِ فِيهِ مُصَوَّرَا  
وَرَأَاهُ كَانَ مُهَلَّلًا وَمُكَبَّرَا

« ابن الفارض »